جامعة عين شمس
كلية الآداب
قسم اللغة العربية وآدابها

رسالة دكتوراه

التداولية في كتاب معترك الأقران في إعجاز القرآن لجلال الدين السيوطي

بحث مقدم لنيل درجة الدكتوراه

إعداد
إيمان حميد عبد الله العذري

إشراف
أ.د. محمد عبد المطلب مصطفى
أستاذ متفرغ بقسم اللغة العربية-كلية الآداب-جامعة عين شمس

د. منال محرم عبد الحميد
أستاذ مساعد بقسم اللغة العربية-كلية الآداب-جامعة عين شمس

١٤٣٨هـ-٢٠١٧م

جامعة عين شمس

كلية الآداب

قسم اللغة العربية وآدابها

رسالة دكتوراه

اسم الباحثة: إيمان حميد عبد الله العذري

عنوان الأطروحة: التداولية في كتاب معترك الأقران في إعجاز القرآن لجلال الدين السيوطي

لجنة الإشراف:

أ.د. محمد عبد المطلب مصطفى	أستاذ متفرغ بقسم اللغة العربية كلية الآداب/جامعة عين شمس
د. منال محرم عبد الحميد	أستاذ مساعد بقسم اللغة العربية كلية الآداب/جامعة عين شمس

الدراسات العليا

أجيزت الأطروحة بتاريخ	/ /٢٠١٧
ختم الإجازة	/ /٢٠١٧

موافقة مجلس الكلية	**موافقة مجلس الجامعة**
بتاريخ / /٢٠١٧	بتاريخ / /٢٠١٧

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء وسيد المرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أمَّا بعد:

فتعتبر النصـــوص التراثية حقلاً خصـــباً يجذب إليه أنظار الباحثين على اختلاف توجهاتهم ومناهجهم، مما يسهم في تثمين جوانب من الجهود التي بذلها علماؤنا القدامى.

وتُعدُّ اللســـانيات التداولية من أهم الأدوات التي تســـاعدنا على اســـتكشـــاف النصـــوص التراثية والتأكد من قدرتها على مضاهاة أحدث النظريات اللسانية المعاصرة؛ ذلك أنَّ اللسانيات التداولية انبثقت من مجالات معرفية متعددة جعلت منها مصـــــدراً غنيّاً بالإجراءات التحليلية المتنوعة والقواعد المضبوطة.

إذ لم تعد التداولية علماً لســـانياً صـــرفاً يقف عند حدود البنية اللغوية، بل أصـــبحت علماً جديداً للتوا صل بكل ما فيه من ا ستراتيجيات و شروط لإنجاح العملية التخاطبية بين المتكلمين، ومن ثَمَّ فإننا نستطيع القول بأنَّ التداولية قد تجاوزت دراسة اللغة إلى دراسة استعمالها.

من هنا وقع اختياري على موضـــوع "التداولية في كتاب معترك الأقران في إعجاز القرآن لجلال الدين الســـيوطي"؛ بغية تقصـــي تجليات التداولية في هذه المدونة التراثية، وإعادة قراءتها

قراءة معاصـــرة تُعيد بعثها من جديد، في حُلّةٍ تتواءم مع معطيات الدرس اللســـاني التداولي الحديث، وذلك بعيداً عن الخوض في الســرد الزماني والوصـفي لهذا الحقل الذي -على جِدَّتِه- تعددت حوله الدراسات، واستُفِيْضَت فيه البحوث.

وهكذا فقد كان من أهم دوافع اختيار هذا الموضوع البحث عن قراءة جديدة للتراث العربي تتماشى مع الأطروحات الفكرية المعاصرة من خلال التسلح بآليات جديدة تمكّن من استكشاف أسرار نصٍّ تراثي غني.

ومما شجعني أكثر على خوض غمار هذا البحث وفرة المادة التداولية في كتاب معترك الأقران في إعجاز القرآن للسيوطي، الذي آمن بأنّ اللغة تؤخذ استعمالاً لا قاعدة، وفضلاً عن ذلك فإني لم أجد -فيما اطلعت عليه- دراســـة جادة وكاملة تناولت التداولية في هذا الكتاب، لكني وقفت على دراسة تناولته من الناحية النحوية والصرفية بعنوان:

(دراســة المســائل النحوية والصــرفية في كتاب معترك الأقران في إعجاز القرآن للإمام جلال الدين السيوطي: خالد محيي الدين مدني، كلية اللغة العربية، القاهرة، ١٩٩٣م).

كما دُرس في أطروحة دكتوراه بعنوان:

(معترك الأقران في إعجاز القرآن للإمام السيوطي منهجه ومنزلته بين كتب الإعجاز دراسة مقارنة: محمد بن عقيل موسى، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٩٩٦م).

لا غرو إذن أنَّ الهدف من وراء جدَّة هذا البحث هو المســـاهمة في إحداث تطور في مســـار الدراســـات التي تناولت كتب الســـيوطي من الناحية اللغوية، إذ كانت في معظمها بعيدة عن

الجانب المرتبط بالتواصـــل اللغوي وما يحيط به من عناصـــر فاعلة في إبلاغ الخطاب، بما فيها من متكلم ومخاطب وزمان ومكان وغير ذلك مما يمكن أن يندرج تحت عنوان التداولية اللسانية.

ولعلَّ هذا العمل ســيمكنني من الانضـــمام إلى قافلة الطامحين إلى توثيق الهوية العربية من خلال إعادة قراءة تراثها، والكشــف عن الوجه الآخر للتفكير اللســاني العربي، وإثبات أســبقية العرب وريادتهم في معرفة أصول الاتجاه اللساني التداولي.

ولا شك في أنَّ هذا البحث قد بُني على المنهج التداولي الحديث الذي يتجاوز البنية النصية بوصفها بنية منغلقة على إمكاناتها الداخلية الصوتية والصرفية والتركيبية، يتجاوزها إلى الخطاب بو صفه بنية منفتحة على علاقات و سياقات خارجية، وعليه فإنَّ الإفادة من نظريات السياق وعلم النص وتحليل الخطاب أمرٌ واردٌ وحتمي.

إنَّ البحث عن التجلي التداولي عند الســيوطي في كتابه (معترك الأقران في إعجاز القرآن) يتطلب أن يتم التعامل معه على أنه خطاب موجه إلى متلقٍ، وهذا الخطاب له مقاصده وآلياته التي بني عليها، يلي ذلك فحص ما يحتوي عليه طرح الســيوطي من إشــارات إلى الســياق والمرســل والمتلقي وظروف المقام، ودور كل ذلك في إنجاح العملية التواصـــلية عبر اللغة المتجســـدة أثناء الاستعمال.

وبناءً على ما ســبق، فقد تم تقســيم البحث إلى فصــلين، يتقدمهما تمهيد، وتقفوهما خاتمة، ويختصُّ التمهيد بعرضٍ موجزٍ لملامح التفكير التداولي عند علماء العرب القدامى بما فيهم من نحاة ولغويين وبلاغيين ونقاد وعلماء للقرآن وأصوليين.

أمَّا الفصل الأول فهو بعنوان "كتاب معترك الأقران في إعجاز القرآن بوصفه خطاباً"، وفيه سيتم تناول كتاب معترك الأقران في إعجاز القرآن على أنَّه خطاب موجه من السيوطي إلى الطرف الآخر للخطاب وهو المخاطب، وفيه مبحثان، خصص الأول منهما لموضوع الخطاب في هذا الكتاب، والمقاصد التي توخاها السيوطي من وراء تأليفه له، وخصص الثاني لاستراتيجيات الخطاب ووسائل الإقناع الحجاجي التي استند إليها السيوطي لإيصال مقاصده بشكل سليم ومقنع إلى المتلقي.

وسيعُقد الفصل الثاني للكشف عن رؤية السيوطي للنص في كتابه (معترك الأقران في إعجاز القرآن)، ويحتوي على مبحثين، الأول منها مدار الحديث فيه عن النص والسياق، والثاني عن التماسك النصي الذي يُعدُّ مقولة جوهرية في مفاهيم اللسانيات النصية، وكذلك استقصاء آليات التماسك النصي التي أوردها السيوطي في كتابه، والتي اتفقت مع ما جاء في أحدث النظريات اللسانية النصية، وتفوقت عليها في بعض الأحيان.

لنصل بعد ذلك إلى الخاتمة التي تتضمن نتائج البحث وأهم ما ورد فيه، يليها مصادر البحث ومراجعه.

وفي الأخير لا يسعني إلاَّ أن أسجِّل جزيل شكري وخالص امتناني لأستاذي الفاضل الدكتور محمد عبد المطلب؛ لتفضله بقبول الإشراف على إعداد هذه الرسالة، وتقويمها بتوجيهاته القيِّمة وآرائه السديدة، وقد لمست فيه سعة الصدر ووجدت من لدنه رعاية أبوية خالصة، وإنِّي لأتضرع إلى العلي القدير أن يثيبه أحسن ثواب ويمنُّ عليه بنعمائه.

وفي نفسي كلُّ الحبِّ والامتنان والعرفان بالفضل والجميل لأسرتي التي شجعتني على الاستمرار والمثابرة في مسيرتي العلمية، ووقفت معي في أشد الظروف في حلي وترحالي، وعلى

رأســهم والدي الغالي وزوجي الحبيب، فلهم مني أصــدق الدعوات بأن يحفظهم الله ويبارك فيهم ويجزيهم عني خير الجزاء.

ويسعدني هنا أن أعبر عن شكري لابنة خالتي العزيزة الدكتورة عناية أبوطالب التي فتحت أبواب مكتبتها الزاخرة أمامي وأمدَّتني بنفائس المصادر والمراجع، فلها مني كل الحب والتقدير.

وختاماً فإنِّي لا أدعي بأنِّي قد وصــلت بما بذلته من جهد إلى غاية البحث ومبتغاه، لكني آمل أن يشــكّل إضــافة ولبنة من لبنات مشــروع إعادة إثبات الهوية العربية في ميدان اللســانيات التداولية.

أسأل الله أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، إنَّه سميع مجيب، والحمد لله أولاً وآخراً، عليه توكلت وإليه أنيب.

الباحثة

التمهيد

إنَّ من حقِّ الأفكار الرائدة التي تتعلق باللسانيات التداولية في تراثنا العربي أن تحظى منا باحتفاءٍ يضاهي احتفاءنا بكل ما يصلنا من الدراسات الغربية الحديثة في هذا المجال.

ومن هذا المنطلق سيتناول هذا التمهيد عرضاً موجزاً لأبرز ملامح التفكير اللغوي التداولي بدءاً بطلائع الدرس اللغوي مع سيبويه وغيره من النحاة واللغويين، ومروراً بأساطين البلاغة والنقد، وانتهاء بعلماء القرآن والأصوليين.

ملامح التداولية عند النحاة واللغويين:

على الرغم من تعدد النظريات اللغوية وحداثة مناهجها، إلا أنَّ النظرية النحوية العربية بأصالتها تكشف لنا بشكل متجدد مدى عمق التفكير النحوي القديم، وملامسته لواقع اللغة الاستعمالي التداولي.

ذلك أنَّ النحاة وإن كان جلُّ اهتمامهم منصباً على وضع القواعد التي تؤطر النظام اللغوي، إلا أنَّهم حرصوا على أن تكون تلك القواعد على درجة من المرونة التي تجعلها تتأثر بالعملية التواصلية وما يحيط بها من ظروف وملابسات، مع مراعاة قصد المتكلم، وأحوال المخاطب، وما يفيده من الخطاب.

وإذا ما بدأنا بسيبويه (ت ١٨٠هـ) وجدنا أنَّه قد انتهج الكثير من المبادئ التداولية في إطار عمله القواعدي في كتابه، من ذلك ما ورد في (باب الاستقامة من الكلام والإحالة)[1] حيث ذكر عدَّة أقسام للكلام منها المستقيم الكذب، ومثاله: حملتُ الجبل.

ويُلاحظ أنَّ هذا التركيب وإن كان صحيحاً من الناحية النحوية إلا أنَّه ليس كذلك من الناحية التداولية؛ لأنَّه لا يطابق الواقع، مما يؤدي إلى حدوث فجوة بين المتكلم والسامع تعيق الاتصال بينها.

لكن حكم سيبويه على جملة مثل (حملت الجبل) بالمستقيم الكذب يعني إخراجه لأسلوب المجاز من دائرة الكلام، وهذا غير محتمل؛ لأنَّ المجاز يعدُّ ركيزة أساسية في الاستعمال الأدبي، وجملة (حملت الجبل) تحتمل معنى مجازياً هو أنني تحمَّلتُ مسئولية ثقيلة كأنني حملت الجبل.

وهذا يعني أنَّ تقسيم سيبويه للكلام يمكن أن يُفسَّر بأمرين اثنين:

الأول أنَّه عندما حدَّد أقسام الكلام حدَّدها في نسقها الصياغي خارج السياق، والثاني وهو ما أراه وأرجحه هو أنَّ حكمه على الكلام المستقيم بالكذب يستند إلى نية المتكلم، فإذا كان المتكلم يقصد كلمة الجبل بمعناها الحقيقي فهو مستقيم كذب، أمَّا إذا كان يقصد معناها المجازي فهو مستقيم حسن، وهذا يعني أنَّ السياق التواصلي هو الفيصل الذي يدخل الكلام دائرة الصلاحية.

---

(١) الكتاب: سيبويه (أبو بشر عمرو بن عثمان)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الكتب العلمية، ط٣، ١٩٨٨م: ٢٥/١.

ويحمل لنا كتاب سيبويه بين طياته ما ينمُّ عن اهتمامه بالمقام، إذ جعل له دوراً كبيراً في توجيه المسائل النحوية، مستنكراً على النحاة تهاونهم وإهمالهم لما عبَّر عنه ب(الخَلْف)، ومن الأمثلة التي ضربها لذلك قول الرجل الذي تعرفه لك: (أنا عبدالله منطلقاً)، فإنَّ هذا يكون من باب المحال؛ لأنَّه إنَّما أراد أن يخبرك بالانطلاق، ولم يُضمر إلا وهو يعلم أنك تعلم من يعني، لكنَّ ذلك يكون حسناً إذا كان خلف حائط أو في موضع تجهله فتسأله: من أنت فيقول: أنا عبدالله منطلقاً في حاجتك[1].

ويحضر المخاطب في ذهن النحاة واللغويين القدامى ليرتبط أسلوب الخطاب عندهم بحال المخاطب ومنزلته، فمثلاً إذا سألت الخليفة أن ينظر في أمرك وينصفك، فإنك ستقول: سألته، ولن تقول: أمرته؛ فالأمر يكون من الأعلى للأدنى منزلة، أما الطلب فإنه يكون على العكس من ذلك[2].

وفضلاً عن ذلك فقد حرص النحاة واللغويون على أن تكون ظروف العملية التواصلية واضحة وبعيدة عن اللبس والغموض، وذلك في سبيل ضمان وصول الرسائل الإبلاغية بنجاح، فلا تقول: قال زيد، وأنت تخاطبه وتعنيه، لأنَّ الأسماء الظاهرة إنما تخبر بها شخصاً عن شخص غائب، والمخبر عنه شخص آخر.[3]

---

(1) الكتاب: ٢/٨٠، ٨١ .

(2) المقتضب: المبرّد (محمد بن يزيد، ت ٢٨٥)، تحقيق: محمد عبد الخالق عضيمة، عالم الكتب، بيروت، د. ت: ١٣٢/٢.

(3) المصدر السابق: ٤/ ٢٧٤.

ويؤكد ابن جني (ت ٣٩٢هـ) على أهمية الانفعالات الجسدية المصاحبة للعملية التواصلية ودورها في إنجاحها وتحقيق الهدف المتوخى منها، حيث يرى أن الاستماع بالأذن لا يغني عن رؤية العين ومقابلة الطرف الآخر، إذ رُبَّ إشارة أبلغ من عبارة، لينقل لنا بعد ذلك عن مشايخه مقولة تلخص لنا كل ما سبق، وهي: (أنا لا أُحْسِن أن أكلّم إنساناً في الظلمة)[١].

وقد تجاوز ابن جني أهمية السياق الخارجي في العملية التواصلية إلى أهميته فيما يصلنا من حكايات ومرْوِيّات بما فيها الأشعار، إذ لابد في فهمها من العلم بما أحاط بها من قرائن، بما في ذلك أحوال الرواة، إذ ليست كل الحكايات المروية مشفوعة بالظروف والأحوال الملابسة لها والمقترنة بها، ولو كنا حضرناها لفهمنا المعنى أكثر من فهمنا له من مجرد السماع[٢].

وهذا يشبه إلى حدٍّ كبير ما ذهب إليه (هايمس)، حيث يرى أن السياق له دور كبير في حصر جميع التأويلات الممكنة، ليدعم بعد ذلك التأويل المقصود.[٣]

وفضلاً عن ذلك كله فإنَّ النحاة واللغويين القدامى شدَّدوا على مبدأ مهم من مبادئ التداولية وهو مبدأ الإفادة، حيث يجب على المتكلم أن يحرص على إفادة المخاطب من الخطاب ما لم يكن موجوداً عنده، أو تزويده بمعلومات جديدة لم يسبق له معرفتها، يقول ابن هشام

---

(١) الخصائص: ابن جني (أبو الفتح عثمان)، تحقيق: محمد علي النجار، دار الهدى للطباعة والنشر، بيروت، ط٢، د. ت، ٢٤٦/١، ٢٤٧.

(٢) المصدر السابق: ٢٤٦/١.

(٣) Discourse analysis: Brown G. and George Yule Cambridge university press, London 1983, p37.

الانصاري (ت ٧٦١هـ) في تعريف الكلام: "هو ما تحصل به الفائدة سواء كان لفظاً أو خطاً أو إشارة أو نطق به لسان الحال"[١].

وبغض النظر عمَّا في النصِّ من إشارة إلى ما يُعرف بالقوة اللاكلامية في الحدث الكلامي، فإنَّ ابن هشام يؤكد فيه على أن الإفادة شرط أساسي في أن يكون الكلام خطاباً متكاملاً، لا ضرباً من العبث والهذيان.

ويضاف إلى مبدأ الإفادة مبدأ تداولي آخر ركز عليه النحاة واللغويون القدامى، وهو مبدأ القصد الذي يتبلور المعنى من خلاله في الخطاب، ولنا أن نكتفي في ذلك بقول السيوطي (ت ٩١١هـ): "صناعة النحو قد تكون فيها الألفاظ مطابقة للمعاني، وقد تكون مخالفة لها إذا فهم السامع المراد، فيقع الإسناد في اللفظ إلى شيء، وهو في المعنى شيء آخر إذا علم المخاطب غرض المتكلم، وكانت الفائدة في كلا الحالين واحدة"[٢].

ولا شك في أن المقاصد من أهم الركائز الأساسية التي يقوم عليها التواصل البشري، حتى أن (سيرل) يرى بأنَّها ذات تكوين بيولوجي، وأنَّ لها أطراً معينة في ذهن المرسل، من هنا فإن فلسفة اللغة عنده تعدُّ فرعاً من فلسفة العقل.[٣]

---

(١) شذور الذهب في معرفة كلام العرب: ابن هشام الأنصاري، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، عالم الكتب، القاهرة، د.ت : ٢ /٢٩.

(٢) الأشباه والنظائر في النحو: جلال الدين السيوطي، تحقيق: محمد عبدالله، دمشق، مجمع اللغة العربية، ١٩٨٦م: ١٧٣/٣.

(٣) Intetionality: John R. Searl, (an essay in the philosophy of mind), Cambridge, 1983, p 160.